

ابن مرزوق الحفيد

وكتابه المتجر الربيع

في شرح الجامع الصحيح للبخاري

أ.د. حفيدة بلميهوب | أستاذة بكلية العلوم الإسلامية

القاضي المبارك أبي عبد الله محمد بن أبي عمرو التميمي صاحب كتاب (ترتيب كتاب اللخمي على المدونة) الذي يعد من أجل كتبه، وقد أنشأ زاوية بتلمسان كائنة بطريق العباد، كانت مركز إشعاع علمي تخرج منها كثير من الأعلام وطلبة العلم.

ومما ساهم أيضا في تعزيز الحياة العلمية وازدهارها بالجزائر بمختلف حواضرها آنذاك علماء الأندلس النازحين، الذين كان لهم الأثر الكبير في مزج الثقافة المغربية بالثقافة الأندلسية، حيث أصبح المسجد الجامع بتلمسان، والجامع الأعظم بأجاديير لا يقلان أهمية عن جامع القرويين والزيتونة⁽³⁾، كل ذلك جعل من هذا العصر عصر ازدهار علمي، حفل بطائفة من مشاهير العلماء في الفقه والحديث واللغة، وكانت تلمسان آنذاك موطن العلماء وقبلة طلاب العلم، لم يؤثر فيها الاضطراب السياسي وانتشار الفتن؛ قال البكري: "... بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وبنو زيان كانوا من رعاة العلوم حيث قربوا العلماء والأدباء والفقهاء"⁽⁴⁾.

الربيع، موضوع بحثنا هذا. ومما زاد في تعزيز الحياة الفكرية وازدهارها، وانتشار العلماء وكثرتهم بالمغرب، اهتمام الأمراء والسلاطين بالاستثمار في المجال العلمي حيث تفننوا في إنشاء المساجد، والزوايا والمدارس التي كانت خير دليل على الازدهار العلمي آنذاك.

مثل مسجد تلمسان الكبير، وجامع أغادير الأعظم بتلمسان⁽¹⁾، والمسجد العظيم الذي شيده السلطان أبو الحسن بالعباد، وخير ما يدل على ذلك ما ذكره ابن خلدون في العبر، قال: "وقد شيد بالعباد مسجد عظيم كان عم محمد ابن مرزوق خطيبا به"⁽²⁾، ويقصد بالعم عم ابن مرزوق الجد. بالإضافة إلى إنشاء عدة مدارس كبرى، كانت منارات علمية، تخرج منها الكثير من العلماء، وكانت لهذه المدارس والمساجد أوقاف عظيمة تصرف على الفقهاء والمدرسين والطلبة.

كما أنشأ الأمراء المشتغلون بالعلم الزوايا، ودور العلم، نذكر منها زاوية أبي عبد الله بن محمد التميمي (ت756) حفيد الفقيه

الحمد لله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، والصلاة والسلام على أفضل الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سلم، الذي تركنا على المحبة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وسار على هديه صحابته رضوان الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد: فهذا بحث نحاول فيه التعريف بالإمام ابن مرزوق الحفيد، أحد أعلام الجزائر البارزين في القرن التاسع الهجري الرابع عشر الميلادي، وذلك بالتعرف على حياته الذاتية والعلمية، وأهم مؤلفاته، مركزين على كتابه (المتجر الربيع والمسعى الربيع في شرح الجامع الصحيح) هذا الكتاب الذي يمثل مساهمة المغرب في شرح صحيح البخاري، واهتمامهم بالأصول، ويرد على أولئك الذين زعموا أن علماء المغرب اهتموا فقط بالفروع وفضلوا صحيح مسلم على صحيح البخاري.

تمهيد: لقد شهد المغرب ازدهارا علميا ملحوظا خلال القرن السابع والتاسع الهجريين، الثالث، والرابع عشر الميلاديين، رغم تدهور الأوضاع السياسية، فكانت تلمسان من أعظم أمصار المغرب التي ضاهت أمصار الدول الإسلامية كما قال ابن خلدون، نبغ فيها كثير من العلماء وعلى رأسهم ابن مرزوق الحفيد صاحب المتجر

(1) تاريخ المغرب: مؤنس: 147/2.

(2) تاريخ ابن خلدون: 473/7.

(3) بغية الرواد: يحيى بن خلدون: 92، تاريخ المغرب: حسين مؤنس: 147/2.

(4) البكري هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ت1094م، له كتاب صفة إفريقية والمغرب، قطعه من كتاب المسالك والممالك.

وقد أشاد الإمام أبو الحسن القلصادي الأندلسي بتلمسان وعلمائها وعلى رأسهم شيخه ابن مرزوق الحفيد في رحلته (سنة 840هـ) عندما قصدتها في طلب العلم -وهي تعيش أزهى أيام حياتها الثقافية- فقال: "... المقصودة بالذات المخصوصة بأكمل الصفات: تلمسان، ... وأدركت فيها الكثير من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم إلى تحصيله مشرفة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان، وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق..." (1)

المبحث الأول

حياة ابن مرزوق الذاتية والعلمية

الفرع الأول: التعريف بابن مرزوق الحفيد

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد (2) العجيسي (3) التلمساني أبو عبد الله واشتهر بالحفيد، تميزا له عن غيره من علماء المرازقة (4). ويقصد بالحفيد، حفيد ابن مرزوق الجد المشهور بالخطيب شمس الدين (ت781هـ).

ولد ابن مرزوق الحفيد ليلة الاثنين رابع عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وسبع مائة للهجرة (766هـ) الموافق للعاشر من ديسمبر عام 1364م بتلمسان.

قال ابن حجر في المعجم المؤسس: "... وذكر ابن مرزوق بخطه أن مولده في ربيع الأول سنة ست وستين " (5).

وقال ابن غازي: ولد ابن مرزوق الحفيد بتلمسان المحروسة سنة ست وستين وسبع مائة، وتوفي جده بالقاهرة سنة إحدى وثمانين وسبع مائة، قاله ابن خلدون أيضا (6). واهتم ابن مرزوق الحفيد بالرحلة في طلب العلم، رحل من تلمسان إلى قسنطينة حيث تعلم وعلم، ومنها إلى مختلف البلاد شرقا وغربا حتى وصف بالرحالة.

وصفه التنبكتي بـ "الرحلة الحاج" (7) شرق وغرب، ورحل إلى تونس فأقام بها عالما ومتعلما.

وقال الثعالبي: "... وقدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها وأخذت عنه كثيرا وسمعت جميع الموطأ بقراءة صاحبنا

أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني وختمت عليه أربعينيات النووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم، وكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ثم أخذ بالبكاء فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب رحمه الله..." (8)

والتقى ابن مرزوق الحفيد بالإمام ابن عرفة وحضر مجالسه كما حكى ذلك في بعض فتاويه (9) كما التقى بأبي العباس القصار، وبعدها رحل إلى فاس فأخذ بها عن الشيخ أبي زيد المكودي وابن حياتي والحافظ محمد ابن مسعود الصنهاجي الفيلاي ثم رحل إلى المشرق فدخل مصر وحط رحاله بالقاهرة حيث أخذ (10).

ورحل إلى مكة حاجا (سنة 790هـ/1388م) رفقة ابن عرفة فلقى بها جمعا من العلماء، من بينهم ابن صديق الذي روى عنه صحيح البخاري، وحج ثانية (عام 819هـ/1416م) والتقى بعلماء أجلاء، أخذ عنهم.

قال ابن حجر ضمن ترجمته لجده شمس الدين (المتوفى سنة 781هـ): "وقدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي "شرح الشفا" بخط جده فأتحقفته به وسر به سرورا كثيرا، ونعم الرجل هو معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط

أولاً: شيوخ ابن مرزوق الحفيد، أقرانه، وتلاميذه ومآثره: أخذ ابن مرزوق الحفيد العلم على يد علماء أجلاء نذكر منهم: - سعيد العقباني (ت811هـ) (13) وإبراهيم المصمودي، والشريف التلمساني (ت792هـ) (14)، وعبد الرحمن ابن خلدون، وابن عرفة الورغمي التونسي (15)، والفيروز أبادي صاحب القاموس المحيط (ت817هـ) (16) والحافظ العراقي. - وقد أخذ بالإجازة عن جده ابن مرزوق شمس الدين الذي اشتهر بالخطيب والجد والرئيس (781/710هـ) (17).

- (1) رحلة القلصادي: دراسة وتحقيق محمد أبو الألفان: 94 ط 2 78/7/14 تحت عدد: 5078.
- (2) رحلة القلصادي: 96، الضوء اللامع: السخاوي: 50/7، نيل الإبتهاج: 499، كفاية المحتاج: التنبكتي: 391. تعريف الخلف: 1/128، الأعلام: الزركلي: 5/331 ط 12، دار العلم للملايين بيروت) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: يحي بوعزيز: 2: 56. البستان: 201. تاريخ الأدب العربي: د/ عمر فروخ: 6/634-640، المعجم المؤسس (ملحق): ابن حجر: 514، نفح الطيب: 420/5.
- (3) لقد لقب ابن مرزوق بالعجيسي لأن أسرته كانت تنتسب إلى العجيسة وهي قبيلة بربرية من زناتة معروف مكانها منها ر: المجموع لابن مرزوق: 1 (المخطوط).
- (4) لقد حلت عائلة المرازقة بكثير من العلماء الفطاحل لهذا اشتهر كل منهم حسب وجوده في الأسرة: الجد والحفيد والحفيد وذلك تسهيلا في التفرقة بينهم.
- (5) المعجم المؤسس: ابن حجر: 514 (الملحق).
- (6) انظر فهرس ابن غازي: 187، تاريخ ابن خلدون: 475/7.
- (7) نيل الإبتهاج للتنبكتي 305 ونفح الطيب للمقري 420/5.
- (8) نيل الإبتهاج للتنبكتي 308، البستان 206، النفح 425/5.
- (9) نيل الإبتهاج 312، نفح الطيب 431/5.
- (10) تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن جيلالي 2/210، 211.
- (11) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.
- (12) المعجم المؤسس: 514 (ملحق)، البستان: ابن مريم: 209.
- (13) نيل الإبتهاج: 125، كفاية المحتاج: 138، البستان لابن مريم: 107، شجرة النور الزكية لابن مخلوف: 1/250، لقط الفرائد: ابن القاضي: 236، تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي: 2/161، الأعلام للزركلي: 3/101، بغية الرواد، يحيى بن خلدون: 123.
- (14) المرجع نفسه: 162.
- (15) يعد مختصره من أكبر الموسوعات في الفقه المالكي، عمدة من أراد التوسع، امتاز هذا المختصر بحسن سبك المسائل وماتنة جمعها وبراعة تفريرها وتقنيها، كما كان ابن عرفة عمدة أهل المشرق والمغرب في تعريف الأبواب والحقائق وتمييز مواهي العقود، فما من بحث أو تأليف في الفقه في القرن التاسع وما بعده إلا وهو يعتمد عليه بإيراد تعاريفه. انظر: اصطلاح المذهب: د. محمد علي: 459-460.
- (16) نيل الإبتهاج: 309، كفاية المحتاج: التنبكتي: 396 ط 1 - 2002/1422 دار ابن حزم.
- (17) قال ابن خلدون: ومولده فيما اخبرني سنة: ستة عشرة وسبع مائة: العبر: 7/472.

أقران الحفيد ابن مرزوق:

من أقرانه نذكر: أبو عبد الله الشريف التلمساني (تـ847هـ) وقاسم العقباني، والحافظ ابن حجر العسقلاني الذي التقى به ابن مرزوق بالقاهرة فسمعا من بعضهما، ومن بين ما شهد به ابن حجر لابن مرزوق قوله في معرض كلامه عن جدّه شمس الدين الخطيب: "وقدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفا بخط جده فأتحفته به، وسر به سرورا كثيرا، ونعم الرجل معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى" (1) ومن أقرانه أيضا أبو يحيى بن عقيبة القفصي (2)، والقلشاني (3).

تلاميذ ابن مرزوق التلمساني الحفيد:

أخذ عن الحفيد ابن مرزوق خلق كثير وتخرّج به فحول العلماء نخص بالذكر منهم:

- ابنه ابن مرزوق الذي يعرف بالكفيف (824-901هـ).
- أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي من كبار علماء الجزائر.
- المجاري أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري (4) (تـ862هـ) من آثاره: البرنامج الذي ذكر فيه رحلاته وشيوخه.
- القلصادي: أبو الحسن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي، الفقيه المتفّن الأستاذ الراوية الرحال آخر من ألف التآليف العديدة من أهل الأندلس (تـ891هـ) بباجة (5).

مآثر ابن مرزوق الحفيد وأقوال العلماء وثناؤهم عليه:

فمن مآثره: شهادة أبي الحسن القلصادي في رحلته عندما ذكر فضل تلمسان وأعلامها، حيث قدم ذكر الحفيد ابن مرزوق في قوله: "... وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا: سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي رضي الله عنه كنف العلم والعلماء وجل قدره في الجلة الفضلاء، قطع الليالي ساهرا وقطف من العلم أزهارا فأثمر وأورق وغرب وشرق حتى توغل في فنون العلم واستغرق إلى أن طلع إلى الأبصار هلالا لأن المغرب مطلع، وسما في النفوس موضعه وموقعه ولله در القائل:

ألا إن أرض الغرب أفضل موطن تساق إليه
الواخداث (6) النجائب (7)

ولولم يكن في الغرب كل فضيلة لما حركت
شوقا إليه الكواكب (8)

... وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعة ليلا ونهارا... وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة وكان له بالعلم عناية... ودراية تعضدها الرواية ونباهة تكسب النزاهة... (9).

ثانيا: آثار ابن مرزوق الحفيد ومؤلفاته:
خلف الإمام ابن مرزوق الحفيد ثروة علمية هائلة تتمثل:

أولا: آثاره المعنوية والمتمثلة في أصحابه وتلامذته من العلماء الفطاحل الذين أخذوا عنه ودرسوا عليه فأجازهم، وقد مرّ معنا ذكر بعضهم.

وثانيا: آثاره المادية والمتمثلة في الكتب التي صنّفها في مختلف الفنون، العقيدة والفقه والحديث والتفسير وغيرها من الكتب التي ضاع منها الكثير، وما بقي منها بعضه محفوظ في المراكز العلمية والمكتبات العامة، وبعضه الآخر تحتكره بعض الأسر التي تمتلك خزائن للمخطوطات. ومن بين هذه المؤلفات نذكر:

كتاب (عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد)، و(تفسير الإخلاص والمائدة ومريم)، وكتاب (نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين)، و(الاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف) (10)،

و(أنوار الدراري في مكررات البخاري)، و(المتجر الربيع في شرح الجامع الصحيح) - موضوع بحثنا في هذا المقال - و(الروضة والحديقة) (11).

ومن مؤلفاته أيضا كتابه الموسوم بـ: (المنزع النبيل في شرح مختصر خليل) الذي يعدّ من أشهر مؤلفاته "وهو في غاية الإتقان، والتحرير (12)، و(إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم)، و(اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة)، و(روضة الأريب ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب).

و(إيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك) (13)، و(رجز تلخيص المفتاح في المعاني والبيان).

و(المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخرجية) في علمي العروض والقوافي، وهو عبارة عن شرح على الخرجية لأبي الحسن الخرجي المغربي، و(اسم الإشارة والموصول) (14) (عبارة عن مجلد وقف على أوله الإمام ابن مريم صاحب البستان).

- كما ألف ثلاثة شروح على البردة، الأكبر سماه: (إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة)، والأصغر: (الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب)، وفي غنية الوافد: (الاستيعاب لما في البردة من البديع والإعراب) و(المفاتيح القرطاسية على الشقراطسية) تطرق إلى ما فيها من البيان والإعراب و(منتهى الأمانى)، اختصر فيه أرجوزة التلمساني في الميراث وغيرها من الكتب القيمة، التي تستحق الاعتناء بها من قبل طلبة العلم لإخراجها والاستفادة منها.

(1) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

(2) ترجمته نيل الإبتهاج: 206.

(3) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله الباجي (من ناحية تونس لا باجة الأندلس) التونسي، عرف بالقلشاني، الفقيه الصالح، من أكابر علماء الأندلس. ذكر الونشريسي وفاته (ابن القلشاني) سنة 848هـ وكذا التنبكي في الكفاية: (230) والسخاوي: 137/6 لكن الذي حققه صاحب الحل السندسية 606/1 أنه توفي سنة 847هـ، وذلك بعد مرض طويل.

(4) برنامج المجاري تحقيق أبو الألفان: 32-42. الضوء اللامع: السخاوي.

(5) ثبت أبي جعفر البلوي: 104-105، نفح الطيب: 2/693، فهرس الفهارس: عبد الحي الكتاني: 2/314 المطبعة الجديدة عدد: 11/1347 معجم مشاهير المغاربة: أبو عمران الشيخ: 441.

(6) الواخداث: المسرعات من الإبل التي ترمي بقوائمها كالنعام.

(7) النجائب: يقال نجب: جمع نجبة ونجيبة: الفاضل من كل حيوان.

(8) رحلة القلصادي: 97 والأبيات من البحر الطويل.

(9) رحلة القلصادي: دراسة وتحقيق محمد أبو الألفان: 94 ط 2 - 14/78 تحت عدد: 5078.

(10) هدية العارفين: 6/191، الأعلام: الزركلي: 5/331، قال الزركلي: أن هذا الشرح لم يكمل، وكان منه كما يظهر في المنزع الوصل بين الطريقتين طريقة المصريين (خليل) وطريقة المغاربة (ابن عرفة) إذ كثيرا ما اعتمد في شرح كلام خليل على استظهارات ابن عرفة (ر: الأعلام: 5/331).

(11) طبعا بدار البصائر.

(12) غنية الواجد وبغية الطالب الماجد: الثعالبي: 13: نيل الإبتهاج: 311، كفاية المحتاج: 397، إصلاح المذهب: 469.

(13) غنية الوافد وبغية الطالب الماجد: الثعالبي: 13: (مخطوط): ثبت أبي جعفر البلوي: 293، وفي الكفاية: إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك، وصل فيه إلى اسم الإشارة أو الموصول، مجلد في غاية الإتقان (كفاية المحتاج: 397).

(14) البستان: ابن مريم: 211، في الكفاية: 397: إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك وصل فيه إلى اسم الإشارة أو الموصول وهو في غاية الإتقان كما ذكر العلماء.

الفرع الأول: التعريف بالمتجر الربيع

يعدُّ شرح ابن مرزوق الحفيد على صحيح البخاري (المتجر الربيع والمسعى الرجيع والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح) واحداً من الشروح التي تفتخر بها مكتبة الحديث النبوي الشريف عامة، ومكتبة الجزائر خاصة، ففيه من العلم واللغة والفقه والحديث والتراجم والمنطق وعمق المنهج ما يشفي صدور ذوي العقول فضلاً عما فيه من أدب المناظرة والجدل المنطقي والمناقشة المبنية على الدليل، وتضمنه لتحقيقات قيِّمة وفوائد جمة لم يذكرها غيره من الشُّراح.

وهذا الشرح لم يكمل؛ يشهد لذلك ما ذكره ابن مرزوق الحفيد في مقدمة هذا الشرح؛ قال: "... فشرحت من الكتب من باب الرجل يوضئ صاحبه من كتاب الوضوء إلى أثناء كتاب الصلاة... وأبواب الأوقات وشرحت بدء الوحي والنصف من كتاب الإيمان... فإن

وقع ما يستغرب ويستبعد من إتمامه مع هذا الحسن وأحوال تناسبه فكذاك الله يفعل ما يشاء وإلا كان ما قدر منها نموذجاً ينسج على منواله من رضي صنعه وشاء، وربما أغنى عن الشروح الكاملة لما فيه من تفرعات وتأصيلات واستنباطات...⁽¹⁾ ثم قال مبيناً جهده في الاستنباط واستخراج الفوائد: "... عدم السماح بترك فائدة، واستفراغ الجهد في استنباط الحسن مما يمكن، ومن ثم كان رجاء إكمال هذا الشرح مع هذه الأوصاف، وكبر جرم الكتاب من المستحيل عادة، لاسيما مع ما انضم إليها من التقصير..."⁽²⁾

فابن مرزوق الحفيد اقتصر على تدوين شرح الأبواب المذكورة آنفاً كما جاء في مقدمة (المتجر الربيع) غير أن الشيء الذي ينبغي معرفته -وقد أشار إليه أيضاً- ما جاء في المقدمة وهو أن ابن مرزوق الحفيد روى صحيح البخاري وشرحه كاملاً في الدروس التي كان يلقيها على الطلبة في المسجد، لكن دون أن يسجله في كتاب، أو يقوم أحد تلاميذه بتقييده.

وابتداً ابن مرزوق الحفيد -رحمه الله- شرحه

بمقدمة بيّن فيها المنهج المتبع في هذا الشرح، والسبب الدافع والباعث إلى وضع هذا الشرح، وذلك بعد أن بيّن وأبرز قيمة الجامع الصحيح وقيمة صاحبه محمد بن إسماعيل البخاري -عليه رحمة الله-.



المصدر: المكتبة الوطنية الجزائرية

الفرع الثاني: منهج ابن مرزوق في شرح صحيح البخاري "المتجر الربيع"، مع ذكر ما تميز به عن الشروح الأخرى.

وقد اقتصرنا في هذا المبحث على وصف منهجه عموماً في عرض المادة العلمية، وذكر مصادره وأصوله التي اعتمد عليها في هذا الشرح، وكذا الأئمة الذين نقل عنهم، وترجيحاته، وبعض ما تميز به هذا الشرح.

لقد اتبع ابن مرزوق الحفيد المنهج التأليفي المبني على توثيق النصوص، وعزو كل قول إلى صاحبه، حيث يذكر الكتاب ويذكر صاحب القول، ويضع كلمة "انتهى" بعد القول المنقول.

- بدأ ابن مرزوق الحفيد شرحه بمقدمة بيّن فيها المنهج الذي اتبعه في شرحه وبين السبب الدافع والباعث إلى وضعه لهذا الشرح، وذلك بعد أن أبرز قيمة الجامع الصحيح ومنزلة صاحبه محمد بن إسماعيل البخاري -عليه رحمة الله- حيث قال:

"وكنيت في زمن الشيبية والكهولة قد منَّ الله عليَّ بالاشتغال بصحيح البخاري فرويته ورؤيته مدة ودرسته

فيه مفهماً ومستنبطاً ما تضمن من فوائده حتى ختمته في سنين عدة وكان يمر بي في مجالس الرواية والإقراء المستحسنة بزعمي من الفوائد ما لم أره لغيري، وأظنه من جميل الفوائد. ولم أوفق حينئذٍ لتقييد تلك الزوائد الشوارد ليتجمل بها من أراد نظمها في سلك نفائس الدرر والقلائد فطلبتها بعد الشيخ فوجدتها قد توحشت ولحقت بالأوائل... ومنذ ذلك الحين تاقت النفس إلى تقييد ما كنت أتمنى... فشرحت من الكتب من باب الرجل يوضئ صاحبه من كتاب الوضوء إلى أثناء كتاب الصلاة.. وأبواب الأوقات وشرحت بدء الوحي والنصف من كتاب الإيمان وكان بفضل الله من أنفس الصلوات..."⁽⁵⁾

واجتهد ابن مرزوق في استكمال ما نقص في الشروح التي سبقته، كشرح ابن التين وابن بطال، وغيرهما.

وذكر في المقدمة أيضاً اجتهاده في استدراك ما فات غيره من الشُّراح، ويظهر هذا جلياً في قوله: "... ومن أهم ما لم يذكره جمع مقاصد أبواب من كل كتاب من كتبه الكبيرة، ككتاب الصلاة ونحوه أو من أكثرها في معنى كأنه فصل من الكتاب، ثم ينتقل إلى أبواب آخر تشترك في معنى آخر من ذلك الكتاب كأنه فصل آخر منه، وتبيين المناسبة بين تلك الأبواب والفصول ووجه الترتيب في تقديم بعضها على بعض وغير ذلك من المحاسن التي نراها يعون الله ذي الجلال والإكرام..."⁽³⁾

وفي قوله: "... وفي تراجم البخاري من الدقائق والأسرار ما عجز كل من أتى بعده عن استيفاء مقاصده في ذلك وسنبيته في كل ترجمة على ما فتح الله به علينا ومن به من فضله بقدر ما رزقنا من الطاقة مما لم يسبق إليه غيرنا وبالله نستعين"⁽⁴⁾.

(1) مقدمة المتجر الربيع: الجزء 1/ ورقة 2 من المخطوط نسخة مصورة من نسخة الجامع الكبير بالجزائر قبل ضياعها.

(2) المصدر نفسه: ورقة 2 نسخة الجامع الكبير بالجزائر.

(3) مقدمة المتجر الربيع (المخطوط).

(4) مقدمة المتجر: 10/1.

(5) المتجر: 1/ 2-1 (المقدمة).



ويشهد لذلك قوله: "... ومن أهم ما لم يذكروه جمع مقاصد أبواب من كل كتاب من كتبه الكبيرة ككتاب الصلاة ونحوه أو من أكثرها في معنى كأنه فصل من الكتاب، ثم ينتقل إلى أبواب آخر تشترك في معنى آخر من ذلك الكتاب كأنه فصل آخر منه، وتبيين المناسبة بين تلك الأبواب والفصول، ووجه الترتيب في تقديم بعضها على بعض وغير ذلك من المحاسن التي نراها بعون الله ذي الجلال والإكرام..." (1).

وقوله: "... وفي تراجم البخاري من الدقائق والأسرار ما عجز كل من أتى بعده عن استيفاء مقاصده في ذلك، وسنبيته في كل ترجمة على ما فتح الله به علينا ومن به من فضله بقدر ما رزقنا من الطاقة مما لم يسبق إليه غيرنا وبالله نستعين" (2).

وبعد أن بين ابن مرزوق ما استدركه في هذا الشرح، عرّف بالإمام البخاري وكتابه فقال: "ومما يتأكد تقديمه في مقدمات الشروح من الآداب، ما أمكن من التعريف بمصنف الكتاب وإن كان مصنف هذا الكتاب غنياً عن مثلي له من التعريف..." (3).

ومن المسائل التي تطرق إليها ابن مرزوق واهتم بها في مقدمته هو سبب تقديم المغاربة لصحيح مسلم على صحيح البخاري فقال: "وأما تفضيل بعض المغاربة لصحيح مسلم عليه فلامر غير الأصحية بل لأنه أسهل تناولاً وأقرب إلى الضبط لجمعه متون الباب في موضع واحد... بلفظها لا مفرقة على الأبواب ولا مقطعة فيها ولا يروى بالمعنى ولا يخلطه بقول صحابي ولا قول عالم غيره وهذه الجهة أو الجهات من الأفضلية مقابلة بجهات في البخاري وتبقى الأصحية له مسلمة من إفادة الجمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة..." (4).

فتقديم المغاربة لصحيح مسلم ليس مطلقاً وإنما عند البعض وأيضاً من غير الصحيح. ثم تكلم الحفيد ابن مرزوق عن تراجم البخاري وذكر أنه جمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة في جامع الصحيح، حيث ضم إلى الحديث الذي على شرطه ما يناسبه من القرآن أو تفسيره أو حديث على غير شرطه أو أثر صاحب أو تابعي.

وذكر ما اختص به جامع البخاري الصحيح وتفريقه الأحاديث وتكراره فقال: "فاختص عن الجوامع بالجمع بين علمي الكتاب والسنة تصحيحاً لما يورده من السنة واستشهاداً عليه، وتفريقه الحديث على الأبواب لظهوره في بعضها وخفائه في بعضها لدلالته عليه

بضمضم أو التزام أو قياس لاشتراك في معنى جامع أو رمز إلى خلاف أو إلى أن المقصود في بعض طرقه لا في اللفظ المذكور، فلذا

وشبهه يكرر الأحاديث، ولكون الحديث قد يتضمن أحكاماً فيحتاج إلى اختصاره تارة وتعليقه أخرى لما في تكريره من تعليم بالاستنباط منه عند وقوع الحادثة والحاجة إليه، وقد يظهر منه في كل مرة يكرر معنى لم يظهر في غيرها، وما خفي أكثر مما ظهر

لقصور إدراك البشر عما احتوى عليه كلام من أوتي جوامع الكلم، فلو اقتصر على ذكر ما فيه من الفوائد مرة واحدة لكان فيه نوع من التحجير وقد يقصر النظر في تلك المرة عن أشياء كثيرة ويفتح في كل نظرة في معنى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" (5).

كما بين ابن مرزوق في مقدمة الشرح سنده إلى البخاري والرواة الذين روى عنهم سماعاً وإجازة (6)، ومن بين ما ذكره: ذكره لمن تدبج به وهو **الحافظ ابن حجر** الذي قال بدوره في المجمع المؤسس: "سمع مني وسمعت منه".

ومن طرق روايته قوله: "وأما روايتي هذا الكتاب الشريف فلي فيه طرق مذكورة في غير هذا وأجلها عندي أنني قرأت جميعه بلفظي بحرم الله الشريف تجاه الكعبة المشرفة سنة اثنتين وتسعين وسبع مائة على الشيخ الصالح برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن صديق الدمشقي بحق سماعه من "الحجار"

الشهير الاسم والسند، ولم يبق في عصر أبي إسحاق حين قراءتي المذكورة على ما قيل من سمع جميع الكتاب على الحجار غيره". وذكر ابن مرزوق الحفيد من أجازته في قوله: "أجازني جميعه إجازة عامة جدي أبو أبي محمد بن مرزوق رحمه الله ورضي عنه، وإمام مقام المالكية بحرم مكة... وممن حدثني بكثير منها إجازة صاحبنا العلامة آخر أئمة المحدثين في عصره بالديار المصرية شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر أبقى الله للمسلمين بركته وحرس ذاته المشرفة وحوزته.

وقد ذكرها في مقدمة شرحه المسمى بفتح الباري في شرح البخاري وفي غيره فمن أرادها فلينظرها هناك..." (7).

- بين المناسبة بين الترجمة والحديث.

وبعد أن ذكر كل ما يتعلق بالجامع الصحيح وشرحه لمعانيه وبيان مناسبة الأبواب قال: "وما أحسن افتتاحه واختتامه أحسن الله إليه، فإن معنى نية العمل إخلاصه لله، ولا يفعل ذلك إلا من يعتقد أن لا فاعل من نفع أو ضرر إلا الله وهذا هو كمال التوحيد وغاية ما يدركه أكثر المكلفين من الثناء على الله تعالى بما هو أهله وهذا معنى الحمد فلم يخل كتابه من الاستفتاح بالحمد على ما ظن حتى اعتذر بالاكتماء بالبسملة أو بمطلق ذكر الله وحتم بكلمات الحمد صريحاً وضمناً... فله دره بدأ بالإخلاص وختم به" (8).

(1) مقدمة المتجر الربيع.

(2) مقدمة المتجر: 1/10.

(3) المتجر: 3/1.

(4) المصدر نفسه: 10-9/1.

(5) مقدمة المتجر: 10/1.

(6) مقدمة المتجر: 12-13/1، ثبت البلوي: 256.

(7) مقدمة المتجر: 12/1.

(8) المتجر: 19/1.



ثم شرع في شرح بدء الوحي مُطَبِّقاً منهجه الذي ذكره في المقدمة، فكان يفكك النص إلى قطع فيشرح ألفاظ الحديث معتمداً على مصادر اللغة مثل المحكم والصاحح للجوهري وغيرهما، ثم يتعرض لمعاني الحروف كما ذكر ذلك في المقدمة حيث قال: "وإذا أحطت علماً بهذا التحقيق والتنقيح فلنرجع إلى تنزيله على الحديث فنقول..." (1)

وباختصار فقد التزم ابن مرزوق في شرحه:

- شرح بعض الأبواب، مما جعل الكثير يتساءل عن السبب، وقد أجاب عن ذلك في المقدمة (2).

- ذكر اسم الباب وترجمته ثم ذكر العلاقة بينه وبين الباب الذي قبله مع بيان مقصد الحديث كما في باب علامة الإيمان حب الأنصار.

- الاستطراد والتطويل الدال على سعة علمه وطول نفسه في البحث والتحري والتدقيق.

- تفكيك عبارة النص وبيان منطوقها ومفهومها.

- الإحالة إلى موضع الشرح، وبسط القول وذلك في الحديث المكرر.

- ذكر فوائد الحديث، والأحكام المستنبطة منه.

- اعتماده الكبير على الإمام مالك وأصحابه مما يبرز مذهبه المالكي، وإن كان لا يستغني عن ذكر أقوال العلماء الآخرين، أبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم - عليهم رحمة الله.

- اعتماد ابن مرزوق على المناقشة في كثير من المسائل فهو يكثر في شرحه المناقشة والمناظرة، حيث أكثر من الافتراض والاعتراض على أدلة الرأي الآخر ويظهر ذلك من خلال ذكره عبارتي: "فإن قلت..." "قلت" التي تكررت كثيراً في شرحه، بل نجدها سمة في كل مؤلفاته، بل وحتى في كثير من فتاويه.

- تأثره بعلم المنطق، الذي هو العلم بالقوانين التي يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة بالماهيات والحجج المفيدة للتصديقات.

- اعتماد ابن مرزوق طريق النظر والبحث والمقارنة والترجيح، ومثال ذلك ما ذكره في باب من قال: إن الإيمان هو العمل، قال- بعد أن شرح واستشهد بأقوال الأئمة وناقشها:- "وعلى هذا المحمل لا حجة للبخاري في الحديث ولو أريد حقيقة الإيمان التصديقي لما اقتصر على رسوله وملائكته إلى آخر أركانه... ثم قال: وهذان التأويلان اللذان اخترناهما وجهان طريقان قويان في الجمع بين مختلف أحاديث هذا النوع، جاريان على أصول علم المعاني فشدَّ عليهما يد الضنين واستغن بهما عن غيرهما مما ذكر في جمعها، لما فيه من التعسف والتكلف والمثمة، والفضل لله سبحانه وبه التوفيق" (3).

- اعتناؤه بعلم اللغة والبدیع والبيان والمعاني والاستدلال بالأراء والأقوال التي ينسبها إلى أصحابها من مختلف المذاهب ويرجح ما يراه راجحاً، فقد شرح ألفاظ الحديث معتمداً على مصادر اللغة القوية، ومستعينا بما قاله: أئمة اللغة مثل ابن سيده، والجوهري وغيرهما مما جعل هذا الشرح يكاد يكون موسوعة لغوية يرجع إليها الباحث في اللغة والنحو والبلاغة والمعاني.

- اعتناؤه بتحقيق المسائل ومناقشة الأقوال كما في باب قول النبي ﷺ {أنا أعلمكم بالله...} قال بعد أن بين ما دلَّ عليه الباب والمناسبة بينه وبين الأبواب التي قبله والمقصد من الباب: "... وكأنه قصد بالباب الرد على الكرامية... وبيان مقصده أن رسول الله أخبر أنه أعلم أمته بالله تعالى لأن ضمير أعلمكم وإن كان ظاهراً في خطاب من شافهه لكن حكمه عام لجميع الأمة، وإن خص بالصحابة فغيرهم أخرى، لأن الصحابة أعلم بالله ممن بعدهم من الأمة والأعلم من الأعلم أعلم والله تعالى أعلم" (4).

ثم قال: والعلم بالله هو نفس الإيمان فإذا كان أعلمهم به كان إيمانه به زائداً على إيمانهم، ولما كان لقائل أن يقول: وهل هذه العلمية ترجع إلى زيادة الأعمال زاد وأن المعرفة فعل القلب لينفي هذا التوهم وإن كان بعيداً لأن من المعلوم أن العلم محله القلب عند الأكثر بدليل {لهم قلوب لا يفقهون بها} (5) {ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} (6) ... وهو كثير وهذا ونحوه أولى من استدلال المصنف بأن كسب القلب أعم من اعلم لتناوله الحقد والغل والحب... ولا إشعار للأعم بأخص معين اللهم إلا إن قصد أن يثبت أن للقلب عملاً على الجملة فنعم لكنه لا يمسسه ما قصد من الاستدلال على ما ادعاه من أن محل العلم بالله هو القلب بل يكون أجنداً لا مناسبة له" (7). وقوله في الباب الخامس: {فإن تابوا} (8) "... وقد بيناً اختلاف الوجهين معنى كما هما لفظاً لا كما توهم أبو حيان ولا حجة له في دعوى الإجماع على جواز الوجهين إن ثبت لأنه إن صح يكون مرتباً على المقصدين لا على مقصد واحد... ثم قال: "...فتمسك بهذا التحقيق وتأمله حق التأمل" (9).

- الترجمة لرواة الحديث وبيان درجتهم وأقوال علماء الجرح والتعديل فيهم وهذا بالنسبة للتابعين ومن بعدهم.

موارد المتجر ومصادره:

لقد تنوعت موارد ابن مرزوق وتعددت حيث اعتمد على كتب اللغة والحديث والفقه والتفسير والأصول فأخذ منها بنصيب، وعلى رأس هذه المصادر، القرآن الكريم وكتب الأحاديث النبوية الشريفة، كما استعان بالمبادئ المنطقية والقياس العقلي. كما تتبع ابن مرزوق شروح صحيح البخاري التي سبقته، فخير قوتها ونقصها وحاول استدراك ما فاتته، ويظهر ذلك من خلال تحقیقاته التي أخبر أنها لم تكن لغيره، فقد أكثر من ذكر "ولم أره لغيري" كما ذكر ابن مرزوق شرح الحافظ ابن حجر رحمه الله الموسوم بفتح الباري، مما دل على اطلاعه عليه.

(1) المتجر: 1/29.

(2) ر: ص من هذا البحث، ومقدمة المتجر: 1/10.

(3) المتجر: 1/باب إن الإيمان هو العمل.

(4) المتجر: 2/باب "أنا أعلمكم بالله..."

(5) الأعراف: جزء من الآية 179.

(6) الحج: 46.

(7) المتجر الربيع: 2/باب أنا أعلمكم بالله

(8) المتجر: 2/62، باب "فإن تابوا".

(9) المصدر نفسه: 2/62.

كما دلّ على أن شرح ابن مرزوق كان بعد شرح ابن حجر، أو في نفس الفترة، ويؤكد هذا قول ابن حجر في المعجم المؤسس أنه سمع من ابن مرزوق وهو بدوره سمع منه وهذا ما يعرف في اصطلاح أهل الحديث بالتدريج، كما ذكر ابن حجر أن ابن مرزوق أخذ عنه قطعة من شرحه "فتح الباري". وإضافة إلى اعتماد ابن مرزوق على شروح البخاري التي سبقتها أو تزامنت معه، فقد اعتمد على عدة كتب متنوعة في اللغة، والحديث والفقه وأصول الفقه والسيرة والتاريخ والسير، والمنطق، فجمع شتات مقاصدها، وضم إليها من غيرها نخب فوائدها، فاجتمع في كتابه ما تفرق في غيره فجاء شرحه هذا آية في التحقيق والشرح حتى قال عنه مؤلفه: "إنه اجتمع فيه من التحقيقات ما لم أره لغيري"، وقال عنه غيره من العلماء: "إنه لم ير الرايون مثله" (1).

وهذه باختصار موارد ابن مرزوق الحفيد في هذا الشرح:

في اللغة: اعتمد على المحكم لابن سيده، وكتاب الصحاح للجوهري، وكتب الزمخشري وفصيح ثعلب، وكتاب الاشتقاق للنحاس، واستشهد بأقوال الفراء، وابن جني والخليل بن أحمد وابن درستويه وسيبويه وابن الأعرابي والسكاكي، وابن دريد (2) وغيرهم من علماء اللغة.

وفي الحديث اعتمد على الموطأ وصحيح البخاري أولاً، ثم على صحيح مسلم والنووي ومسنند أبي يعلى، وعلى المعلم للمازري وإكمال المعلم بفوائد مسلم، والتمهيد لابن عبد البر وشرح الخطابي على البخاري أعلام السنن وشرح ابن بطلال وابن التين والعيني، وشرح المهلب بن أبي صفرة وغيرها.

وفي التفسير اعتمد على تفسير ابن عطية، والتسهيل، وتفسير الزمخشري والقرطبي وتفسير أبي العالية وغيرها.

واعتمد في شرح غريب الحديث على مشارق الأنوار للقاضي عياض وعلى كتاب المطالع لابن قرقول.

وفي الفقه اعتمد على: الموطأ، والمدونة، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح الأحكام لجده الخطيب، وأورد أقوال ابن الطيب، والطبيبي، وابن الملقن، كما اعتمد على الجلاب والنوادر وكتب ابن المواز،

وطرر ابن عات، واستشهد بأقوال المازري وأشهب وأصبغ، وابن حبيب وسحنون، وابن سحنون وابن الماجشون والباجي وابن القصار من شيوخ المالكية، وأحمد بن نصر، كما استشهد بأقوال بعض أصحابه دون أن يشير إلى أسمائهم، وأورد أقوال صاحب التحرير، وأقوال ابن بزيمة، وإمام الحرمين، وذكر قول المزني، والحكم بن عتيبة.

وفي أصول الفقه: اعتمد على المحصول لابن أبي حاتم الرازي وغيره.

وفي الأخبار والسيرة وتراجم الرواة اعتمد على تاريخ البخاري وطبقات ابن سعد (86) وعلى الواقدي (82) وعلى المدخل للحاكم النيسابوري وغيرها من الكتب.

أثر شرح (3) ابن مرزوق لصحيح البخاري "المتجر الربيع" فيمن بعده:

لقد ذكر العلماء الذين ترجموا لابن مرزوق "المتجر الربيع" ضمن مؤلفاته، ومن الذين ذكره الإمام البلوي عن شيخه ابن مرزوق الكفيف الذي أخذ عن والده الحفيد، وقرأ عليه أغلب كتبه في الحديث ومن بينها أخذ جزء من شرح البخاري المتجر الربيع، قال البلوي: "... وحضر مواضع من تصحيح شرح البخاري المذكور أي المتجر الربيع، وعلى أبيه معتمد شيخنا هذا نفعنا الله به". (4)

ومن الذين اعتمدوا كتاب المتجر الربيع واستفادوا منه الإمام السنوسي - عليه رحمة الله - في شرحه لصحيح البخاري، ويظهر ذلك من خلال النقول الكثيرة عن ابن مرزوق الحفيد، والتي يبدأها بقوله: "وقال الشيخ العلامة سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق..." وفي بعض الأحيان يقول: "وقال الشيخ رحمه الله ونفع به..." (5)

وختاماً: لقد كان كتاب شرح صحيح البخاري "المتجر الربيع" من بين الشروح القيمة

على صحيح البخاري رغم أنه لم يكمل - كتابة - ومن أجل الكتب التي تشهد بغزارة علم صاحبها وسعة اطلاعه ودقة تحقيقاته، سجل فيه مؤلفه "ابن مرزوق الحفيد" كثيراً من الإضافات على الشروح الأخرى، وضمنه كثيراً من النكت والفوائد، ويشهد "المتجر الربيع" أيضاً بمدى اهتمام علماء المغرب بصحيح البخاري، ويرد على الدعاوي الباطلة التي تقول إن علماء المغرب اهتموا فقط بالفروع وتركوا الأصول، وقدّموا صحيح مسلم على صحيح البخاري، وصاحب "المتجر الربيع" ومؤلفه "ابن مرزوق الحفيد" إمام تلمسان في عصره وعالمها (6)، حامل لواء العلم والفقه، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، وقد كانت له محطات كثيرة في مختلف البلدان عالماً ومتعلماً ومؤلفاً ومجيزاً، وقد حلّه ابن غازي بالإمام، قطب المغرب، العلم العلامة الصدر الأود، المحقق النظار، الحجة، العالم الرباني (7)، وقال ابن مريم في البستان: "إنه كان آية في تحقيق العلوم، والاطلاع المفرط على المنقول... الأخذ من كل فن بنصيب" وبعد أن عدد محاسنه وخصاله قال: "وبالجملة فإن الوصف يتقاصر عن صفاته، فهو شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره، وزمانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحر تحقيقه الضمان والصادي:

حلف الزمان ليأتين بمثله

حشت يمينك يا زمان فكفر

وإن هذه الأوصاف التي وصف بها فمما علم من حاله، فلا يحتاج في نسبته إلى قائل معين، ومتى احتاجت شمس الضحى إلى دليل؟... (8) ثم ختم ابن مريم متحسراً لعدم إيفائه حقه فقال: "يا له من عالم وإمام جمع العلوم بأسرها لكنه بخسته الدار فالله يرحمه ويرضى عنه، وينفعنا به" (9).

(1) ذكر هذا صاحب معلمة التراث بشير ضيف.

(2) ذكره في ورقة 85 و 94.

(3) إن المتجر الربيع لو اعتنى به الأصحاب والتلاميذ (أي تلاميذ ابن مرزوق) فسجلوه وكتبوه حينما كان يشرح مشافهة في المساجد لكان آية في الحسن.

(4) ثبت البلوي: 294.

(5) شرح صحيح البخاري: السنوسي مخطوط بمكتبة الحامة بالجزائر تحت رقم: 2726.

(6) وقال تلميذه ابن العباس: "...كان شديد الشكيمة في أمور الشريعة ماضي العزيمة، كثير الحذر... متحرياً فيم يتلقى ويلقى" الكفاية 394.

وقال ابن غازي نقلاً عما حدثه شيخه الورياني بأن ابن مرزوق كان شديداً على أهل البدع.

(7) فهرس ابن غازي: 113

(8) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: ابن مريم: 204-205.

(9) المرجع نفسه: 204.